هوامش

علاقة قديمة وشعرية تربط سكان العاصمة اللبنانية بزهر الياسمين الذي يندر ألا تجده داخل أي منزل وفي كل شارع، وما يعزز هذا الارتباط رائحته التي لا يخطئها أنف

الياسمين مكون اساسي في منازل بيروت (Getty)

ياسمين بيروت

طوق حنين يلف المدينة

فاطمة بزي

كيفما جلت في بيروت تجدك أزهار الياسمين وشجيراتها. تراه يكلل شوارعها أينما حللت، خصوصاً الشوارع التراثية وبين البيوت بيروتية الهوية. فهو دائماً ما يكون متدلياً من حائط منزل أو يظلل مدخلاً.

«في صغرنا كنا ننتظر الياسمين حين يتساقط، لجمعه عن الأرض وشمّه»، تتذكر رينيه غالية ذكرياتها مع الياسمين في الجميزة، الحي البيروتي التراثي الذي لا تزال تعيش فيه منذ ولادتها قبل 56 سنة. فالحي المصنف أثرياً لأن كل بيوته قديمة لا تزال الزريعة البيتية حاضرة فيه.

تُعرّف غالية بيروت بالمدينة المتعطّرة، فكيفما تسير في أحيائها القديمة تشمّ روائح أشجارها العبقة. إذ ينتشر فيها الشجر الذي له رائحة زكيّة مثل الإكيدنيا، والبوصفير، والياسمين، والكولونيا والفتنة. وما يميّز الياسمين عن غيره، خاصة البلدي أو الشامي، رائحته القوية، لدرجة أن الشخص الذي يعاني من حساسيّة في الشم يمكن أن يضيق تنفسه.

تربط رينيه غالية بالياسمين علاقة عتيقة وشاعرية، فهو يمثل طفولتها وذكرياتها. فكما تعيدها أغنية معيّنة إلى ذكرى ولحظات عاشتها، عندما تشمّ الياسمين تعيدها الرائحة إلى طفولتها بسرعة.

عادة ما يزرع البيروتيون الياسمينة إلى جانب البيت لتملأك الرائحة كلما دخلت وخرجت، أو عند مدخل البيت وقرب الشبابيك. كانت أمام البيوت أفنية (سطيحات)، حيث تجلس العائلة، يحيطها الياسمين برائحته الأخاذة، وفوضويته التي تضفي شعوراً بحضور الطبيعة التلقائية إلى الفناء. كذلك، تجتمع مع الياسمين مفردات معمارية في مقدمتها «البحرة» التي تشكّل جزءاً أساسيّاً من عمارة تلك البيوت، وتحيطها أصص زريعة كانت في الأصل عبوات زيت وحليب. تضحك غالية وهي تعدد «تنكة زيت، تنكة نيدو، تنكة سمنة» يزرعون فيها الياسمين، وكل ما يمكنهم من أنواع النباتات.

طبعاً، من كانت لديه أحواض يزرع فيها، والذي ليست لديه يستخدم التنك. وكل البيوت القديمة تتشابه في أصناف النباتات التي تزرعها. قديماً، لم تكن هناك أبنية عالية. كانت البيوت مؤلفة من طابق أو اثنين. هذه الأبنية التي تتخذ شكل القصر أو الفيلا هي لأناس من طبقة الـ«هاي لايف»، وعادة ما كانت لديهم أصص فخار ليزرعوا فيها نباتاتهم. هذه النباتات هي ذاتها المزروعة في البيوت القديمة، أي «بيوت الدراويش» كما تحب أن تسمّيها.

ترى رينيه غالية أن أمزجة الناس اختلفت اليوم وصار لكل واحد ذوقه الشخصي. اعتادوا على الشتل الأجنبي الذي يستورد من الخارج، فلا ترى في البيوت الجديدة النوعيات التي كانت الناس تزرعها في جنيناتها البيروتية الأصيلة.

تؤكّد أنهم كانوا يزرعون الياسمين الأبيض البلدي، وليس الأصفر الأجنبي الذي لم يكن موجوداً وقتها. «ليس من فترة وجيزة تعرّفنا إلى هذا النوع الإيطالي من الزهرة»، وفق ما تقول.

المهندس الزراعي سامر سلوم يبرر استخدام الياسمين الإيطالي حديثاً بتناسقه وترتيبه، على عكس الياسمين البلدي الذي يزهر بشكل منتشر وعشوائي. الياسمين الشامي تبعاً لتصنيفه زراعياً واسمه باللغة اللاتينية Jasminum Officinale ينتمي إلى الفصيلة الزيتونية المعروفة بـ Oleaceae.

تبعاً لخبرته، يقول سلوم إنه لم يعد أهالي بيروت هم الذين يبتاعون زريعتهم. «من لديه حديقة يأتي بمهندس أو شركة لتنسيق الحدائق. لم يعودوا يزرعون أو يختارون الياسمين الشامي».

في بيروت تحديداً، أصبح الياسمين الإيطالي الأكثر شيوعاً. يُستثنى من ذلك من لديه حنين، وكانت لديه في بيته قديماً ياسمينة يحبها بشكل خاص. ما زال بعض الناس يفضلون الياسمين البلدي على الإيطالي لأن رائحته أقوى ويزهر أكثر. ويرى سلوم أن اللبناني بشكل عام يحب النباتات، والمفضلة لديه الياسمين والغاردينيا والفل والقرنفل، لأنه يحب رائحتها. والياسمين، بأنواعه وطبيعته، مناسب ليُزرع إلى جانب البيوت وبينها، لأنه ينمو ويعيش في الشمس ونصف الفيء. تمتد الياسمينة أفقياً، لذلك كانوا يربطونها بخيوط حتى تتسلق إلى الأعلى نحو السطح. يوصي سلوم عندما تُزرع الياسمينة في أصص أن تستوعب حجم الياسمينة وجذورها. فالجنينات في بيروت قليلة وليس هناك الكثير من المساحات الخضراء ليزرع الناس فيها.

لا يحدد سلوم موسماً معيناً للياسمين «لا يمكننا أن نقول إن الياسمين يزهر في الربيع لأن ذلك يعتمد على ارتفاع المنطقة المزروع فيها. ففي الساحل مثلاً يبدأ الربيع باكراً فيزهر أبكر من المناطق الأبرد كالجبل مثلاً».

باختصار

تُعرّف غالية بيروت بالمدينة المتعطّرة، فكيفما تسير في أحيائها القديمة تشمّ روائح أشجارها العبقة والمتنوعة تربط غالية بالياسمين علاقة عتيقة وشاعرية، فعندما تشمّ الياسمين تعيدها الرائحة إلى طفولتها سريعاً

■■■

سامر سلوم يبرر استخدام الياسمين الإيطالي حديثاً بتناسقه وترتيبه، على عكس البلدي الذي يزهر وينتشر عشوائياً

وأخيراً

«مدينة ..» عبد الرحيم الصديقي

معن البياري

المرجّح أن الشاعر وكاتب الدراما والمسرح (والطيار) القطري، عبد الرحيم الصديقي، إنما أراد، في كتابته روايته الثانية «مدينة .. وثيقة عشق» (دار بلاتينيوم للنشر والتوزيع، الكويت، 2019)، الإفادة من خبرته كاتب أشعار غنائية، ومؤلف نصوص مسرحية (بعضها للأطفال)، وسيناريست، نحو ثلاثين عاما، في محاولته بناء عمل روائي، يبدو تركيبيا، متشظيا بعض الشيء، ليس من جهة تعدد شخصياته، وإنما من منح كل منها قصتها الخاصة، لتتلملم الرواية مما يجوز اعتبارها محكيات عن هذه الشخصيات، يرويها بتلقائية شديدة العفوية والبساطة سارد عليم بكل شيء عنها، وترويها هذه الشخصيات نفسها، ليتداخل الحكي بالصيغتين في مواضع غير قليلة في العمل، وليتواشج أحيانا مع مونولوغات تبثها هذه الشخصية وتلك. وذلك كله في فصول يعطي الصديقي لكل منها تاريخها، وهو موعد الواقعة أو الحكي عنها، في الدوحة وفي إسطنبول، ومرة في دبي. وإذا صح القول إن ثمّة شخصية مركزية، هي الشابة مدينة، ذات الأرومة الإيرانية (الفارسية) المولودة في الدوحة، ولا يفارقها هاجس الحصول على الجنسية القطرية، إلا أن الشخصيات الأخرى لا تظهر مساعدةً أو ثانويةً أو تفصيلية، بل تبدو فاعلة ولخيوط حكاياتها المتشعبة ما هو موصول بمدينة وما هو غير موصول بها. وإذا صح قول آخر إن القص كله ظل يتمدد على سطوح هذه الشخصيات، بمعنى أنه بقي يقدم ظاهرها، وهشاشتها غالبا، ولا يذهب إلى العميق في جوانياتها وحواشيها، وإن مدينة وحدها ربما (ربما مهمة هنا) كانت الشخصية التي بدا الشغل على كينونتها أقوى وأكثر جلاء. ترى، ما الذي جعل المحكمين في الدورة السادسة لجائزة كتارا للرواية العربية، المعلنة نتائجها قبل أسابيع، يمنحون «مدينة ..» الجائزة في فئة الرواية القطرية، فأحرزتها من بين 15 رواية متنافسة؟ لا أدري، ولكن المرجح أن لعبة الالتباس فيها هي دافع الفوز، وهي لعبة أتقنها عبد الرحيم الصديقي، بدليل بعض الارتباك الذي يحدثه لقارئ روايته، عندما يجعل هذا القارئ يروح من حكاية إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر، في نوع من «المناورة» معه. ولا يجترح الكاتب في صنيعه هذا جديدا، لكنه يفعله بنوع من غواية هذا المسلك في القص والسرد، غير أن القفلة التي تُختتم بها الرواية، عندما نصادف مدينة، البطلة المركزية، تحضر حفل توقيع الرواية التي نقرأها في معرض الدوحة للكتاب، وتطلب إهداء على نسخة، ولكن لابنها نجم، طفلها الرضيع الذي تقص آخر سطور الرواية أنها (مدينة) تجرّ عربته، ويتبعها «رجل، طويل، ذو كرش مترهل، وفي يده سبحة يحركها بين أصابعه، يرتدي ملابسه الرياضية، وهي تعنفه بشدة، .. «لنذهب يا صقر .. مب وقت الأسئلة». وذلك بعد أن نعرف أن الرواية إنما هي بالتركية مترجمة إلى العربية، لكاتبة تركية، وكتبت بين الدوحة وإسطنبول. وفي هذا، يبلغ عبد الرحيم الصديقي، في «لعبه» مع قارئ روايته، منزلة عالية في شحنة الطرافة، والحذاقة ربما. وفي البال أن عبد الرحيم الصديقي مرّ في واحدة من صفحات الرواية طيّارا.

ولكن، هل كانت «جرأة» صاحب «مدينة .. حكاية عشق» فقط في بنائها، ومناورات السرد والتباساته

> يحسب لرواية «مدينة .. حكاية عشق» أنها اقتربت كثيرا من قضايا غالبا ما يتحاشى الإعلام في الخليج الإتيان عليها

فيها؟ لا، إنه أيضا في «تجرئها» على بيئتها الخليجية، القطرية. وهنا، لصاحب هذه السطور أن يرى أن الرواية بدت قاسيةً في ما أرادت «تعريته»، وفي تقديمها شخصيات بالغة السلبية في علاقتها بالمرأة، وأتجنب نعتها هنا بأنها شخصيات نمطية، فواحد من هؤلاء، السبعيني غازي، والذي تتزوج به مدينة، ويغدر بها تاليا، بزعم أنه أصيب بالزهايمر، يتحدث عن نفسه إنه يعشق التبديل، «أتزوج الرابعة وأنا أفكر في التاسعة، أستمتع بها وتستمتع بي وبأموالي». ومنزل هذا الرجل، وهو تاجر له محل قماش في سوق واقف، أول منزل تمارس فيه الخادمة الفيليبينية «عبوديتها». ويحسب للرواية أنها اقتربت كثيرا من قضايا غالبا ما يتحاشى الإعلام في الخليج الإتيان عليها، من قبيل الطائفية والعرقية، والإسراف، والتلهي بالزواج من هذه وتلك. وفي الرواية مواضع غير قليلة عن هذا كله وغيره. كل إيجاز مخل. ولا تنكتب هذه السطور لإيجاز رواية «مدينة ..»، فهي، ابتداء وانتهاء، لا توجز، لأن «الحدوتة» فيها ليست غرضها الأول، وإنْ تبقى متعة الحكاية هي متعة كل رواية (في واحد من مذاهب الكتابة الروائية)، وإنما المقصد التأشير إلى عمل لشاعر وكاتب أغنيات ومسرحي وسيناريست قطري أغوته كتابة الرواية، فكتبها، مجربا ومختبرا ملكاته، نجح كثيرا في مواضع، وأخفق قليلا في أخرى.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**